

الأمة العربية :

خصوصية التكوين واغتراب الإيديولوجيا.

د. محمد عبد الشفيح عيسى

أستاذ بمعهد التخطيط القومى - القاهرة

بيان المحتويات

المبحث الأول مفهوم الأمة والأمة العربية.

المبحث الثانى خصوصية القومية العربية .

المبحث الثالث بعض الظواهر الكامنة وراء اغتراب إيديولوجية القومية العربية.

المبحث الأول

مفهوم الأمة و الأمة العربية

نقدم فيما يلى تعريفاً محدداً للأمة يمثل نوعاً من الاجتهاد ، مع الاخذ فى الاعتبار التعريفات التى طرحت وما زالت تطرح فى هذا المجال، ثم نعرض تنزيلاً للمفهوم العام على الحالة العربية بوجه خاص . وتتجلى فى هذا الجزء من البحث الاستفادة إلى حد بعيد من فكر الدكتور عصمت سيف الدولة حول الإطار النظرى للأمة والقومية فى كتابه العمدة (نظرية الثورة العربية) وقد دشن من خلاله ما يمكن أن نطلق عليه (المفهوم الحضارى المتكامل) فى الأمة والقومية، مصححاً ومطوراً المفهوم التقليدى لساطع الحصرى والقائم على ثنائية(اللغة والتاريخ).

ماهى الأمة:

الأمة: هى جماعة من الناس تكونت تاريخياً على أرض محددة، ذات نمط حضارى متميز، ممتد وعميق (فى المجالين المادى والمعنوى).

وهذا التعريف يتكون من شقين أساسيين:

١ - الشق الأول: وهو الخاص بـ "جماعة من الناس تكونت تاريخياً على أرض محددة". وهذا الشق بالمعنى اللغوى غير قابل للتجزئة، ونختلف مع من يقولون بتجزئة الجملة فيعرفونها بأنها هى "جماعة من الناس" ويعرفونها كمن يعرف الماء بالماء فيقولون: جماعة بشرية معينة.. فإن هذا لا يضيف شيئاً. ولكن قد يقبل رأى القائل بأن الجماعة البشرية يقصد بها: جماعة السكان من حجم أدنى معين.

بيد أنه من المرفوض تماماً أن يتم فصل عبارة (جماعة من الناس) لكي يتم تمرير الفكرة القائلة بأن الأصل المشترك هو من مكونات الأمة، حيث تكون هذه الجماعة البشرية ذات أصول أثنية أو عرقية مشتركة.

وهذا غير صحيح، فليست هناك أمة من أصل عرقى واحد، رغم ادعاء كثير من القوميين بعكس ذلك.

ونحن نختلف مع تجزئة الجملة، ونرى أنها ذات معنى موحد ينصرف إلى دلالة مركبة هي (الاستمرار والاستقرار) أو (الاستمرار - الاستقرار).

فالجماعة البشرية المقصودة في تعريف الأمة هي تلك الجماعة التي تكونت على مدى زمني معين يسمح بإطلاق صفة الاستمرارية عليها، ثم أنها الجماعة التي حققت هذه الاستمرارية نفسها عن طريق الاستقرار على أرض مشتركة.

إن الاستقرار يميز الأمة عن التجمعات القبلية، والتجمعات العارضة والعرضية الأخرى، بمثل ما أن الاستمرار التاريخي الطويل نسبياً، يميز الأمة عن الجماعات قبل القومية، حتى إذا كانت جماعات قروية، وفلاحية، مستقرة على الأرض الزراعية، أو جماعات مدنية أو حضرية مستقرة في حواضرها ومدنها التجارية - الحرفية، كما كان الحال في مدن الإغريق.

إن الاستمرارية التاريخية مهمة جداً، لأنها تعنى الثبات والديمومة، فإذا انقطعت الاستمرارية - أو تقطعت - بشكل جوهري، وليس بشكل عرضي أو مؤقت تماماً، فإن هذا يؤدي إلى قطع مسيرة تكوين الجماعة البشرية كأمة.

فمثلاً إن استقرار الجماعات القروية الفلاحية على الأرض الزراعية في مصر القديمة قد حقق إنجازات مادية وثقافية كبيرة، ولكن قطعت استمراريته، وخاصة بفعل التدخل الخارجي من البدو سواء من الشرق (الحيثيين والهكسوس) أو الغرب (الليبيين أو سكان شمال إفريقيا الأقدمين) ثم أخيراً من قبل الفرس ثم الاسكندر الأكبر فخلفاؤه البطالمة، ثم الرومان. والخلاصة أن العنصر الأول في تكوين الأمة هو: (جماعة بشرية مستمرة ومستقرة). أو بتعبير آخر (جماعة من الناس تكونت تاريخياً على أرض محددة).

٢ - أما الشق الثاني في الأمة فهو:

أنها ذات نمط حضارى متميز، ممتد وعميق (في المجالين المادى والمعنوى). ونقصد بذلك: (أ) أنها - الأمة - ذات نمط حضارى، فالأمة كإفراد وجماعات ينبغى أن تكون حياتها مصبوغة بصبغة معينة... أى تكون لها خصائص مشتركة حضارية.

إن أفراد الأمة، كأشخاص طبيعيين، والجماعات الاجتماعية الفرعية داخل المجتمع القومى، (من قبائل وقرى واتحادات قروية، وطبقات اجتماعية، شرائح ثقافية وسياسية... الخ) ينبغى أن تكون مشمولة بهذا النمط الحضارى عموماً.

(ب) إن النمط الحضارى ينبغى أن يكون متميزاً، بمعنى أن يكون هناك طابع قومى خاص، هو طابع حضارة الأمة، مدنيته المادية وثقافتها، بما يؤهلها لتمييز شخصيتها القومية والحضارية.

(ج) الطابع الحضارى (المستمد من تميز النمط الحضارى) يجب أن يكون طابعاً مشتركاً بالفعل، أى أخذاً هيئة خصائص مشتركة بمعنى أنها: ممتدة أفقياً على رقعة المجتمع كله، بأقطاره الأربعة (شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً) ثم أنها خصائص عميقة رأسياً، بمعنى أنها "متغلغلة" فى الحياة الاجتماعية - النفسية، أى فى السيكولوجيا الاجتماعية، منعكساً على هيئة سجايا نفسية مشتركة منبعثة مما يسمى العادات والتقاليد والقيم المشتركة أو الأعراف القومية أو الثقافة الشعبية والعامة القومية.

وهذا ما يقصده البعض بالتضاييف أو التكامل القومى.

(د) إن النمط الحضارى يشمل مجالين:

أ - المجال المادى، أى الحياة الاقتصادية عموماً من إنتاج وتبادل، فينبغى أن يكون هناك حد أدنى من التكامل أو الاعتماد المتبادل Inter - dependence الاقتصادى، سواء فى صورة

أولية مناسبة لعصور سبقت (كالاعتماد المتبادل التجارى فى ظل الحضارة العربية الإسلامية) أو فى صورة ناضجة عصرية (كالاعتماد المتبادل الإنتاجى والتبادلى فى الحضارة الرأسمالية المعاصرة).

إن تفكك الحياة المادية - دون الحد الأدنى المناسب والمتعين وفق الظروف التاريخية السائدة أى المطبوعة بالطابع النسبى- لا يسمح بالتشكيل المشترك للأمة... وكما يقول هوراس ديفيز مثلاً "لقد كان المجتمع الإقطاعى فى أوروبا أساساً ضعيفاً لبناء أمة ... لأنه كان مجرداً من المركزية تماماً"، وشرط التكامل المادى هو حد أدنى من التكامل السياسى والإدارى، أى لا بد أن يكون هناك نوع من التفاعل السياسى والإدارى الذى يتم من خلال تنظيمات أو تنظيم معين مناسب للظرف التاريخى.

ففى العصور القديمة والوسطى لم توجد بالطبع الدولة القومية بالمفهوم الغربى الحديث، وكانت الدولة إما دولة إمبراطورية، أو دولة مدنية صغيرة، وهما النمطان الشائعان للدولة القديمة والوسيط.

ب - المجال غير المادى (المعنوى):

إن مجرد لغة مشتركة لا يكون أمة، فما أكثر ما وجدت جماعات ذات لغات مشتركة ولكنها لم تكون أمة، بل ما أكثر ما وجدت جماعات ذات لغات مشتركة وعاشت أحداثاً تاريخية مشتركة لفترات تطول أو تقصر، ولكنها لم تشكل أمة، وذلك لأن اللغة لم تندرج فى سياق حضارة أى لم تنجب ثقافة مشتركة، ذات حد أدنى من الانتشار والعمق وفق ظروف العصر.

وإذن فإن مجرد وجود لغة مشتركة، لا يعد مكوناً من مكونات الأمة. ومن الأدلة الأخرى على ذلك أن هناك أمماً مختلفة، وتكون مجتمعات قومية متباينة، ولكنها ذات لغة مشتركة ... لأنه من اللغة، بالتعامل مع الظروف الاجتماعية الخاصة لكل مجتمع، انبثقت ثقافات قومية مختلفة أو متباينة .

وهناك مجتمعات ذات لغات مختلفة، ولكن رغم ذلك حققت ثقافة مشتركة فقد تعلم أفراد كل جماعة لغات الجماعات الأخرى، وتفاهم معها، وأصبح قادراً على المشاركة فى صياغة ثقافية قومية موحدة.

إن اللغة لا تعمل وحدها، إذن ولكن تعمل فى الإطار الاجتماعى المركب.

وما يقال عن اللغة يقال عن التاريخ - فما التاريخ ؟

هل التاريخ هو مجرد الزمان Time ؟ إذا كان الأمر كذلك فلننص عليه باعتباره - لفظاً - الزمان، أى مجرد تتابع الوقت.

ولكن هذا متضمن، ماثوث ضمناً، فى معنى الجملة الأولى من تعريف الأمة:

(جماعة مستمرة زمنياً - ومستقرة أيضاً).

إن القول بأن التاريخ - هكذا على إطلاقه - هو من مكونات الأمة، كقول بأن الأمة تتكون عبر الزمان، ولكن هذا مجرد عنصر فرعى من عنصر فرعى آخر فى الأمة وهو عنصر (الاستقرار - الاستمرار). ولا معنى للتاريخ بهذا المدلول فى حد ذاته، فهو لا بد أن يرتبط بالعنصر الآخر فى تعريف الأمة (النمط الحضارى المتميز والممتد والعميق).. وفى هذه الحالة يحسن أن نتخلى عن مصطلح التاريخ ونسمى الأشياء بمسمياتها الحقيقية فنقول (الحضارة)، أو ما يمكن مع "التساهل" - إذا صح هذا التعبير - أن نقول: "التاريخ الحضارى"، وفى الحالتين: إذا قصد بالتاريخ مجرد عامل الزمن، أو إذا قصد به التشكيل الحضارى، فإن التاريخ بالمعنى المجرى الذى تحدث عنه ساطع الحصرى وأسلافه من المفكرين الألمان، لا يغدو له (محل لازم) فى التعريف العلمى للأمة.

إن مجرد التتابع الزمنى لا يكون أمة، وكم من مجتمعات وجماعات استمرت قائمة (وحية ترزق) لفترات متطاولة من الزمان، ولكنها لم تتحول إلى أمم، لأنها لم تصنع حضارة مشتركة قومية وعميقة أى لم تنشئ خصائص حضارية ممتدة متغلغلة اجتماعياً، أى لم تولد - باختصار

- حضارة قومية. فبقيت مجرد جماعات إثنية إلى هذا الحد أو ذلك Ethnical groups أو أقوام Peoples فعنصر التاريخ مجرداً في حد ذاته لا يعنى عنها شيئاً. وسبق أن رأينا الرأي نفسه بخصوص اللغة: فاللغة لا تغنى عن هذه المجتمعات شيئاً إذا بقيت مجرد لغات (وإن لغات مشتركة بل ومستمرة زمنياً) ما دامت لم تنجب ثقافة قومية، أى ثقافة تشكل الشق المعنوي من الحضارة الممتدة العميقة، لتكون بدورها ثقافة ممتدة ومتغلغلة، أى ثقافة تنشئ خصائص ثقافية - اجتماعية مشتركة، ومن ثم سجايا نفسية اجتماعية مشتركة. إذن اللغة والتاريخ ليستا أبرز مكونات الأمة كما قال ساطع الحصرى ... (وليستا من ثم أبرز مكونات القومية كظاهرة اجتماعية).

ولكن الأمر يختلف على صعيد القومية كشعور وفكرة وحركة، أى القومية كأيدولوجية، فالقومية بهذه المثابة، وخاصة حين تكمل بناء الأمة، أو حتى تخلقها خلقاً جديداً، تتوسل ببعث لغة محلية تحولها إلى لغة قومية تصير لساناً لجميع أعضاء المجتمع القومي، وأحياناً - إذا كانت اللغة قائمة وفاعلة نسبياً، تكتفى الحركة القومية بنشرها وتعميمها.. إن عملية تعميم اللغة المشتركة هي من أهم مقومات القومية الأيدولوجية. وقل مثل ذلك عن التاريخ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه (التاريخ الذاتي) أو (التاريخ)، فهو من أهم مقومات القومية (كأيدولوجية) أيضاً. فالقومية تعنى أول ما تعنى - إلى جانب بعث وتعميم اللغة - بإعادة كتابة تاريخها - وهي من ثم تصنع ذاكرة تاريخية جديدة، "وبأثر رجعى" فى كثير من الحالات، أى تصنع ماضياً إن لم يكن لها ماض قومي. وإذن فاللغة والتاريخ أهم مقومات القومية الأيدولوجية، غير أنها ليست من بين مقومات الأمة والقومية الاجتماعية، أو قل: ليست هي بحد ذاتها من مقوماتها، وإنما تؤخذ فى إطار مفهوم "النمط الحضارى".

ولكن ساطع الحصرى لم يقدر له أن يفرق هذه التفرقة الدقيقة بين عوامل الأمة، وعوامل القومية. أمة اللغة والتاريخ:

ومع ذلك فإن أبا خلدون كان (معه الحق). فهناك من الشواهد الخاصة بالأمة العربية ما يدل على الأهمية المركزية لكل من اللغة والتاريخ فى تكوين الأمة العربية بالذات، ودون غيرها من أمم الأرض التى خلقها الله ..!

١ - فاللغة العربية: هي أقدم اللغات الحية فى العالم (ربما باستثناء اللغة الصينية - التى شهدت تغييراً كبيراً نسبياً وأكبر مما شهدته اللغة العربية).

فقد اندثرت، أو قاربت على الاندثار، لغات شعوب كثيرة من بنى الأرض كاللغة السنسكريتية، واللغة اللاتينية. وشيء قريب من ذلك حدث للغة الإغريقية القديمة.

أما العربية فلها شأن آخر تماماً ... ويعود ذلك إلى أنها لغة القرآن، ولهذا اكتسبت طابعاً مقدساً حفظها من الزوال، وعصمها من التبدل، وإن أدى فى نفس الوقت إلى ظاهرة سلبية هي الجمود النسبى وعدم القدرة على مجازاة التغيرات المادية والاجتماعية والثقافية عربياً وعالمياً، ومن هنا تجيء الدعوة الملحة إلى تجديد اللغة العربية، تجديد بناها الصوتية والصرفية والنحوية جميعاً، لتلائم حاجات العصر ...

٢ - أما التاريخ، وما أدراك ما التاريخ فى الحالة العربية ... فإن أمة العرب هي أمة التاريخ بقدر ما هي أمة اللغة ..

فالأمة العربية تكونت فى (الماضى) ! ثم حدثت لها الظاهرة التى نسميها "بالانقطاع الحضارى الطويل"، فأصبح تكوينها إذن ظاهرة راجعة إلى التاريخ البعيد، وليست ظاهرة عصرية كالأمم الأوربية شرقاً وغرباً، التى لعبت فيها العوامل الأخرى دوراً بارزاً وخاصة الاقتصاد المشترك، والكيان السياسى المشترك، والتضامن الثقافى والحضارى المشترك.

وإذن بمعنى ما، يمكن القول إن كلاً من اللغة والتاريخ لهما فى الحالة العربية تحديداً، معنى خاص يتجاوز ما هو متعلق بالأمم الأخرى.

فبلغت العربية - كلغة دينية - دور وأى دور فى تشكيل الثقافة العربية المشتركة، فإذا بها ثقافة الإسلام (ونقول الإسلام لندل على محتواه الاجتماعى الحضارى، ولا نقول مجرد الدين الإسلامى أو الديانة).

وللتاريخ العربى بأحداثه المشتركة وشواهد العريقة والعميقة، أثر لا يمضى فى الذاكرة العربية، فهو لا ينسى، وهو لم ينس، لأنه جزء من تاريخ الإسلام .. الدين والحضارة .. فالدفاع عن الوطن والأمة كان دفاعاً - فى الوعى العربى - عن العقيدة.

لذلك لم ينس العرب (تاريخهم) كما نسي شعوب ومجتمعات كثيرة تاريخها، وظل هذا التاريخ - أو هذا "الماضى" إن شئت - مكوناً هاماً من مكونات الثقافة العربية الإسلامية ذاتها، كشق من الحضارة العربية الإسلامية، أى من مكونات الأمة العربية، التى تشكلت عبر بناء نمطها الحضارى المتميز والممتد والعميق، وهو نمط الحضارة العربية الإسلامية، أو نمط الحضارة الإسلامية العربية - إن شئت.

فذلك إذن يمكن أن نطلق على الأمة العربية - تجاوزاً - (أمة اللغة والتاريخ). ولكن هذا لا يعد بمثابة طلاق مع المفهوم النظرى العام للأمة كما حاولنا صياغته فيما سبق، وإنما هو تجديد نوعى له ...

وتجدر الإشارة إلى أن الدور المركزى للغة والتاريخ فى تكوين الأمة العربية بوجه خاص، ضمن السياق العام لتكوين الأمم وفق الإطار المفهومى النظرى السابق - إن هذا الدور بالذات، هو ما يحملنا على ضرورة النظر فى عملية (تعزيز بناء الأمة). ذلك أن هذه الأمة - نظراً لتمحورها حول التاريخ و"اللغة التاريخية"، أى حول الماضى ولغة الماضى - إن شئت، تعتبر فى الظرف المعاصر، ظرف نشوء وتبلور الأيديولوجيا والحركة القومية، ليست على "مستوى" المفهوم الحضارى. فهى إذن أمة (ضعيفة البنيان).

ولتعزيز بنيان الأمة يجب الانطلاق لاستئناف تطورها الحضارى بعد طول انقطاع، أى:

١ - بناء اقتصادها المشترك.

٢ - بناء كياناتها السياسى المشترك.

٣ - بنا ثقافتها الجديدة المشتركة.

أى باختصار: بناء حضارتها المشتركة، التى تنطلق من الماضى (التاريخ ولغته) إلى المستقبل (العلم والثورة)، أى تنطلق من التراث إلى المعاصرة بالمصطلحات (الشعبية) الشائعة هذه الأيام.

فالمطلوب إذن تحويل الأمة العربية من (أمة تاريخية) إذا صح التعبير (أى قديمة) إلى أمة معاصرة..

أو تحويلها من (أمة الماضى) إلى أمة -المستقبل ...

المبحث الثانى

خصوصية القومية العربية أو: القومية العربية هى (حالة خاصة)

فى العالم كله تقريباً ربما لا توجد جماعة بشرية كبيرة - مجزأة - ومتوفر لديها الشعور بضرورة تكوين كيان سياسى وثقافى وحضارى موحد بشكل عام وعريض - سوى الجماعة العربية.

وبالنظر إلى خارطة العالم:

نجد أن العالم المتقدم صناعياً والمكون من أوروبا الغربية واليابان، وأمريكا الشمالية - لا تعاني مجتمعاته من مشكلة التطابق بين حدود القومية وحدود الدولة، وإن كانت تعاني من ازدواج القومية وخاصة في حالة بريطانيا وكندا.

فقد أقامت جميعها دولاً قومية منذ ما لا يقل - في حالة احداثها عهداً - عن قرن وربع القرن (حالة ألمانيا وإيطاليا).

بل إن مجموعة الدول القومية في أوروبا الغربية تسعى إلى إقامة كيان سياسى (فوق - قومى) حالياً ضمن ما يسمى بالاتحاد الأوروبى.

أما فى العالم الهامشى المكون من جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق، وأوروبا الشرقية (الدول الاشتراكية الست سابقاً) + البلدان (الاشتراكية سابقاً) فى آسيا (فيتنام - كوريا الشمالية - لاوس) + الصين - فلا توجد المشكلة أيضاً:

ففى الأرض السوفيتية سابقاً، انفرط عقد الإمبراطورية الاشتراكية متعددة القوميات وقامت كيانات جديدة، ليس على أساس قومى بالضرورة، ولكنها على كل حال تمثل دولاً تعزز باستقلالها السياسى، رغم أنه تم إهدار تكوينها القومى بفعل السياسىة الستالينية القائمة على (نقل السكان) وخاصة بنقل السكان الروس إلى جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية وجمهوريات البلطيق، وتلفيق الحدود على غير الأساس القومى مثل جعل تبعية الأرض فى منطقة ناجورنو - كاراباخ لأذربيجان، مقابل تجميع اليهود من المناطق المختلفة وحصرهم أو حصر غالبيتهم فى مناطق معينة. إن كل ذلك أحدث اضطراباً شديداً وزعزعة قوية فى الأسس الاجتماعية للدول والكيانات السياسىة القائمة، ولكنها مع ذلك يتوفر لها الحس بأهمية تكوين وبقاء الدولة رغم منازعات الحدود وحالات التمزق السياسى والعقائدى الداخلى.

أما فى أوروبا الشرقية والبلقان فقد تكونت دولها القومية ابتداء من اليونان فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر، مروراً بالكيانات القومية التى قامت تدريجاً وبصورة شبه طبيعية لكل من بلغاريا ورومانيا وألبانيا - ثم التكوين التلفيقى لكل من يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا عقب الحرب العالمية الأولى والذى انتهى بتفكك الدولتين مؤخراً على أسس قومية أو شبه قومية.

وأما الصين فهى دولة قومية بامتياز، رغم انفصال تايوان منذ نصف قرن تقريباً، ولسوف تعود يوماً إلى الوطن الأم، ورغم وجود أقليات قومية غير قومية "الهان" الرئيسية. وأما فيتنام فقد توحدت كدولة قومية بعد تحرير فيتنام الجنوبية من الأمريكيين وعقد اتفاقية السلام مع فيتنام الشمالية سنة ١٩٧٣.

وأما كوريا فإنها منقسمة بين شمال وجنوب بتأثير اختلاف النظام الاجتماعى والسياسى وكأثر لنظام القطبية الثنائية السابق - والآن وبعد زوال الاتحاد السوفيتى تراهن الولايات المتحدة على عزل كوريا الشمالية وتجريدها من عناصر قوتها المتبقية (وخاصة قدرتها النووية) تمهيداً لتطبيق (الحل الألمانى) عليها، أى ضم كوريا الشمالية لكوريا الجنوبية حالما تتغير بعض الظروف السياسىة.

وأما فى العالم المسمى بالثالث سابقاً فنلاحظ أن هناك دولاً قومية ناجزة كإندونيسيا (مع اعترافنا بالمشكلات الحادة وخاصة كشمير)، وهناك حالة باكستان وبنجلاديش كتطبيق لمشروع إنشاء قومية (أو قوميتين...!) على أساس الإسلام.

وهناك قوميات متوحدة سياسياً بشكل عام رغم مشاكل الأقليات والتعدد الإثنى: ونقصد هنا حالة أفغانستان وإيران وتركيا، حيث تضم الدولتان الأخيرتان جماعات عديدة أهمها الأكراد. وهناك دول قومية فى أندونيسيا وتايوان والفلبين وماليزيا... (الأعضاء جميعاً فى رابطة "آسيان").

أما فى أمريكا اللاتينية فهناك دول وطنية أو إقليمية Territorial States ولا يمكن القول إنها دول (قومية) بالمعنى الصحيح لأنها لا تقوم على قوميات متميزة، أو على أمم، رغم رسوخ التشكيلات الاجتماعية فى الدول الكبيرة وهى الأرجنتين والبرازيل والمكسيك.

وأما فى إفريقيا جنوب الصحراء فتقوم (دول إقليمية) أيضاً، تسعى شأنها شأن أمريكا اللاتينية لبلورة هوية وطنية أو إقليمية لكل منها، مع الأخذ فى الاعتبار التمزقات الداخلية بفعل التنافس بين حدود التكوين الاجتماعى القبلى وحدود التكوينات السياسية أى الدول، وهذه هى مشكلة الحدود الاستعمارية والقائمة على التلفيق ... وعلى كل حال فإن التشكيلات الاجتماعية الإفريقية هى أساساً تشكيلات قبل "قومية" أى سابقة على مرحلة تكوين الأمم، فهى تشكيلات قبلية إذن أو عرقية (إثنية).

فلا تبقى إذن سوى حالة القومية العربية، حالة فريدة تمثل النزوع إلى الوحدة، فى وجه التجزئة التى هى فى الحقيقة نتاج التفاعل بين الإرث التاريخى لبلدان المنطقة والسياسات الاستعمارية. وربما يمكن القول إن السياسات الاستعمارية هى المسئولة حالياً عن تكريس الفرقة بين البلدان العربية، وخاصة بواسطة السياسة الأمريكية بدافع من موضوعى: النفط وإسرائيل.

فالتجزئة العربية كهدف توجه إليه القومية تركيزها السياسى والعقائدى هى بمعنى من المعانى (صياغة استعمارية)، ومن هنا صعوبة التصدى لها، ولذلك نقول إن مشكلة القومية العربية هى فى موقع القلب من مشكلات "العالم الثلاثى" Tripartite World - أى عالم إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

ومن ثم فإنه لا أمل فى تحقيق حلم القومية العربية سوى بتعبئة العالم الثلاثى من حولها وذلك بالإسلام، أى حشد العالم الإسلامى حول القومية العربية - وذلك ضمن عدة عوامل أخرى ضرورية.

ومن ناحية الإرث التاريخى:

فإن التجزئة العربية لا تمثل مشكلة سوى من منظور القومية العربية.

وقد انتهت التجزئة فى عهد الاستعمار الحديث إلى أن أصبحت تجزئة كولونىالية، وبعبارة أخرى تحول التجزؤ السياسى للكيان العربى الإسلامى إلى تجزئة (كولونىالية) فى القرنين التاسع عشر والعشرين:

فى القرن التاسع عشر بالنسبة لمصر والسودان وتونس والجزائر وعدن.

وفى القرن العشرين بالنسبة لليبيا والمغرب (الأقصى) والبلدان العربية فى المشرق (الشام والعراق والحجاز واليمن).

ثم أن التجزئة الكولونىالية انتهت فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى أن أصبحت متمثلة فى (الدول الإقليمية) وأهم ما يميزها هو التبعية ثم الخضوع للغرب ولأمريكا.

وهذه الدول الإقليمية لا تمثل مشكلة بدورها سوى من منظور أيديولوجية القومية العربية.

والمهم أن:

- إرث التجزؤ

- وإرث التجزئة الكولونىالية.

- إرث الدول الإقليمية التابعة - الخاضعة.

قد أدى إلى:

١ - عدم تبلور القومية العربية (أيديولوجياً) بالدرجة الكافية:

فقد ظهرت أيديولوجية القومية العربية فى الشام فى أوائل القرن العشرين، ثم نقلها عبد الناصر على مستوى القمة إلى مصر فى الخمسينيات والستينيات من نفس القرن وسرعان ما انحسرت فى مصر بإزاحة هذه القمة (وفاة عبد الناصر).

وكانت القومية العربية قد نشأت فى المشرق بتأثير طغيان القومية التركية والطورانية. (*)

ثم أنها انتقلت على مستوى القمة إلى مصر بتأثير نكبة فلسطين وتفاعلاتها على مستوى مصر عموماً، وقمتها خصوصاً، وشخص عبد الناصر بصفة أخص.

ثم إن انعكاسات القومية العربية ظهرت بتأثير شخصية عبد الناصر في كل من الخليج وجنوب شبه الجزيرة العربية والمغرب العربي من ليبيا إلى مراكش، ونذكر هنا حدث ثورة الجزائر (٥٤ - ١٩٦٢) وليبيا (١٩٦٩).

وبعد نكسة ١٩٦٧ ولا سيما بعد وفاة عبد الناصر، انكسرت هذه الإشعاعات للقومية العربية في الخليج وشبه الجزيرة والمغرب (عدا ليبيا) مقابل صعود الأيديولوجية الإسلامية من جهة أولى، وصعود الأفكار والحركات "دون القومية" من جهة أخرى في كل من المشرق والمغرب. ولكن القومية العربية حققت دفعة استثنائية - وربما مؤقتة؟ - في منطقة المغرب العربي بتأثير حرب الخليج الثانية (١٩٩٠ - ٩١) ثم الحرب الثالثة لأمريكا ضد العراق (٢٠٠٣).

المهم إذن أن إرث التجزؤ والتجزئة الكولونيالية والدول الإقليمية التابعة والخاضعة قد أدى إلى عدم تبلور القومية العربية (كشعور وفعل) Nationality، وبالتالي عدم انتشار القومية العربية كمذهب وحركة Nationalism.

وقد أدى عدم تبلور القومية - كشعور وفعل - إلى عدم بروز أولوية الولاء والانتماء لمركز قومي عام (أى الولاء والانتماء للجماعة القومية الكبرى Macro National Unit) قبل الولاءات والانتماءات الاجتماعية الصغرى.

وربما يمكن القول أن هذه ظاهرة تاريخية بعيدة الغور: فلم يكن هناك فى ظل التجزؤ العام للدولة الإسلامية كيان سياسى عربى خاص، وإنما كان هناك كيان إسلامى عام. ولا يعنى ذلك أننا نقصد أنه كان من الضرورى أو حتى من الممكن قيام دولة بالمعنى الحديث المشتق من الخبرة السياسية الأوروبية للدولة القومية. فمثل هذه الدولة حديثة العهد جداً، وإنما نقصد أنه لم يوجد كيان سياسى بالشكل الممكن فى العصر محل البحث.

ولكن ورغم عدم وجود كيان سياسى عربى فقد وجدت حركة اجتماعية - سياسية (عربية)، وبالتالي وجد كيان اجتماعى واقتصادى وثقافى وعربى، وذلك بسبب ديناميكية انتشار اللغة العربية وبسبب سيطرة جماعات السلطة ذات الأصول العربية فى معظم الأجزاء التى تتكلم العربية (وليس كلها) وفى معظم الأدوار التاريخية (وليس فى كلها).

وأخذت هذه السيطرة أشكالاً عديدة:

- عملية الفتح والغزو.

- عمليات التجارة.

- الفقه والشعر.

وسرعان ما اندمجت عناصر غير عربية فى الجماعة ذات العصب العربى، فى تلك المناطق التى أخذت تشهد الانتشار الموسع للغة العربية وأهمها: العناصر "الأمازيغية" (ابتداءً من طارق بن زياد وانتهاءً بإقامة دولة إسلامية بربرية مجاهدة) وكذلك القبط فى مصر.

وبفعل وجود كيان اجتماعى واقتصادى وثقافى عربى عام (مناسب لظروف العصر فى النصف الأول من العصور الوسطى) وجد ما ندعوه بالحضارة العربية الإسلامية (أو النموذج - أو النمط - الحضارى العربى الإسلامى).

وبفعل وجود النمط الحضارى العربى وجدت جماعة بشرية قومية - ولكن الحركة السياسية العربية لم تكن من الاتساع والعمق بحيث تصهر كافة الوحدات الصغرى فى الوحدة القومية، أى لم تكمل بناء الأمة العربية، كما أنها لم تستمر زمنياً فى أجواء مواجهة تحديات التتار والصليبيين والعثمانيين والأوروبيين.

وهكذا فإن الجماعة البشرية القومية وجدت برغم عدم وجود الدولة الواحدة والاقتصاد المشترك الكامل على النمط الحديث.

ويستنتج البعض من ذلك - مثل سمير أمين فى كتابه "الأمة العربية" - أن الأمة العربية لم توجد إلا فى مرحلة معينة هى المرحلة التى شهدت توحيد الاقتصاد والدولة فى المناطق المتكلمة بالعربية.

ونحن نرى أنه رغم عدم قيام الدولة فقد تكونت جماعة بشرية قومية **National Community** (وهي ليست جماعة إثنية كما قد يفهم من سمير أمين بل جماعة قومية). ولكن افتقاد الكيان السياسي وافتقاد الحركة السياسية القومية العامة النشطة المسيطرة حال دون تبلور كيان ولحمة الأمة وكذلك عدم تبلور رابطة الولاء والانتماء كأولوية لهذه الجماعة القومية.

وبعبارة أخرى: لقد وجدت الجماعة القومية، ولكن ربما لم توجد الأمة تامة التكوين بشكل كامل - نظراً لعدم صهر كافة مكونات الجماعة البشرية القومية في بوتقة اجتماعية واقتصادية وثقافية وفكرية موحدة (حضارية) بفعل عدم وجود كيان سياسي موحد بل وعدم وجود حركة سياسية قومية عامة ومسيطرة لفترة طويلة كما هو حال الحركة القومية الألمانية منذ غزو نابليون لألمانيا حتى توحيدها عام ١٨٧٠ أي لمدة ثلاثة أرباع قرن تقريباً، وكذلك الحركة القومية الإيطالية.

أما في حالة بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وسويسرا فقد وجد ما هو أقوى من الحركة القومية. لقد وجد الكيان السياسي القومي المتمثل في الملكيات المطلقة المدعية بالحق الإلهي والتي ناضلت من أجل إقامة دولة قومية في مواجهة كل من النزعة (الفيودالية) أو الإقطاعية - الغربية للنبل والنبلاء والنزعة العالمية الدينية لرجال الكنيسة، وكانت الطبقة المتوسطة والتي انبعت منها البرجوازية هي العماد الاجتماعي للمشروع (الملوكي) القومي.

وهكذا فإنه في حالة الوطن العربي لم يوجد الكيان السياسي العربي المشترك، ولو مجرد كيان سياسي عام على مستوى المتكلمين بالعربية، ولا نقول دولة قومية على النسق الغربي المعاصر، كما لم توجد الحركة السياسية القومية العامة العارمة. وحقاً لقد وجدت حركة سياسية قومية (مشرقية) منذ أول القرن حتى ١٩٥٦، ثم حركة سياسية أكثر عمومية واتساعاً على يد عبد الناصر، ولكن لم يقدر لهذه الحركة أن تستمر، بسبب ثغراتها الذاتية، ولأن مستوى القدرات الموضوعية كان أقل من القدر اللازم لمقارعة أعداء القومية العربية وهم أقوى دول العالم الصناعي الأعلى تطوراً من الناحية التكنولوجية.

وهنا يمكن القول إن الجماعة القومية **National Community** مرادف القومية كظاهرة اجتماعية أي **Nationality**.

وبالتالي يمكن القول إن القومية العربية وجدت كظاهرة اجتماعية أي كحقيقة موضوعية، قبل أن يكتمل بناء الأمة التامة.

وقد سبقت القومية العربية كظاهرة واقعية - سبقت وجود القومية العربية كشعور وحركة أي **Nationalism**، والتي تعنى (المذهب القومي) أو الأيديولوجيا القومية والتي تتمظهر على مظهرين:

أ - مستوى إدراكي (أي شعوري جماعي).

ب - مستوى حركي (حيث الحركة هي المستوى العملي للأيديولوجيا التي تقع دائماً على تخوم الحركة). وهذا المستوى يسمى بالحركة القومية **National Movement**.
وإن فالشعور القومي و الحركة القومية هما مستويان لظاهرة القومية كعقيدة اجتماعية بشرية معينة أي كأيديولوجيا.

إن القومية على المستويين - الإدراكي والحركي - أي بوصفها **Nationalism** تأتي لاحقة لوجود أو لفاعلية الجماعة البشرية القومية - أي القومية كظاهرة اجتماعية وكفى: **Nationality**.

وبذلك تتأصل التفرقة بين معنيين للقومية:

- القومية كظاهرة اجتماعية **Nationality**.

- القومية كأيديولوجية **Nationalism**.

والأيديولوجية ليست مجموعة كتابات أكاديمية وإنما هي اعتقاد (اجتماعي جماعي يتغلغل في الإدراك ويصل إلى مستوى الفعل الحركي). وليكن معلوماً هنا أن الأيديولوجية القومية العربية

نشأت نشأة مشرقية، وتحولت على يد عبد الناصر إلى أيديولوجية عربية عامة ولكن لم يقدر لها لا العمق (النظري والطبقي) ولا الاتساع (لكافة أجزاء الوطن)، بما يؤهلها لتكون حركة سياسية تلعب الدور الذى أدته الحركة السياسية القومية الألمانية والإيطالية التى نابت مناب الكيان السياسى فى الخبرتين البريطانية والفرنسية.

أى إن أيديولوجية القومية العربية لم تحقق كما ذكرنا تبلوراً كافياً لكل من الشعور القومى والحركة القومية.

ولكنّ القومية كأيديولوجية، تكمل بناء الأمة - انطلاقاً من جود القومية كظاهرة اجتماعية أى وجود الجماعة البشرية القومية.

فهذا هو درس التاريخ من تجارب كل من البلقان (حيث لم توجد سوى جماعات قومية هشة تقل فى عمقها كثيراً جداً عن الجماعة القومية العربية، ثم قامت الأيديولوجية القومية باكمال بناء الأمة عبر بناء دولة قومية) بل وكذلك فى ألمانيا وإيطاليا. وفى ألمانيا خاصة وجدت جماعة بشرية ألمانية (جماعة جرمانية) ضمت الولايات الألمانية والنمسا وجماعات جرمانية أخرى ولم تتحول إلى أمة إلا فى ظل الحركة السياسية القومية الألمانية التى نبذت النزعة الجرمانية الشاملة التى قادتها النمسا بل وحاربت النمسا وفرنسا. بل وكذلك كانت كل من بريطانيا وفرنسا فى ظل الملكية الاستبدادية فى مطلع العصر الحديث جماعة قومية ثم تبلورت أمة عبر مرحلة تطور المركنتيلية فى ظل الرأسمالية التجارية ثم مرحلة تبلور الليبرالية ومبدأ سيادة الشعب - وخلال المرحلتين اكتمل بناء الأمة:

الأولى أكملتها ببناء السوق الموحدة أو الاقتصاد المشترك، والثانية اكتملتها ببناء الدولة (الديمقراطية البرجوازية الحديثة).

هذا بينما أن إفريقيا جنوب الصحراء توجد بها جماعات قبلية ودول إقليمية غير متطابقة معها، ولا توجد بها جماعات قومية بالمعنى الصحيح - كما أشرنا - ، وكذا أمريكا اللاتينية التى تقوم بها دول إقليمية وليست قومية بالمعنى الحقيقى.

هذا وإذا عمت وتعمقت الأيديولوجية القومية، شعورياً وحركياً، على المستوى العربى العام، فإنها يمكن أن تقوم مقام الكيان السياسى فى بلورة الأمة، أى إكمال مقومات الأمة بخلق ما هو ناقص فيها: وما هو ناقص هو عمومية وعمق رابطة الولاء القومى أو الانتماء القومى. (*)

ونقصد بعمومية وعمق رابطة الولاء والانتماء القومى: صهر الولاءات الجزئية Micro: القبلية والطائفية والعرقية والإقليمية ضمن الكيان الاجتماعى العام للأمة.

ويقول الماركسيون إن الجماعة البشرية العربية (أو القومية) ستتحول إلى أمة حينما يقوم الاقتصاد المشترك أو السوق الموحدة.

وعيب هذا التحليل أنه يعود بنا إلى النقطة المستحيلة: وهى شرط إقامة الدولة الموحدة، لنشوء الأمة.

وفى حالة الأمة العربية إن هذا شرط مستحيل نظراً لأن إقامة الدولة العربية الموحدة أمامها أهوال طوال. فليس من مقتضى إقامة نظرية عربية فى الأمة إذن أن نضيف شرط الاقتصاد المشترك أو السوق أو الدولة.

إنما يدلنا الواقع العربى على أن أكبر مشكلة فى وجه التطور العربى إزاء بناء اقتصاد مشترك أو دولة مستقبلية، هى صعود الولاءات الاجتماعية الصغرى لمنازعة الولاء القومى الوليد.

ولكن لماذا أن الولاء القومى والانتماء القومى ناقص فى الحالة العربية ؟

وهل إن الولاء والانتماء عنصر من عناصر الأمة؟

لا ليس ذلك،

إنما أهم مقومات الأمة: (الحضارة المشتركة) بما فيها الثقافة المشتركة. والذى حدث فى الحالة العربية هو الانقطاع الحضارى، بفعل انقطاع الحركة السياسية العربية العامة التى أنشأت الحضارة العربية الإسلامية أول مرة، فى وجه تصاعد التحديات المعادية للعرب.

لقد وجدت الحركة السياسية العربية الأولى حضارة عربية إسلامية من خلال التجارة والفتوح والفقه والشعر، ولكن حدث انكسار في مسار هذه الحركة السياسية بفعل تصاعد التحديات من كل جانب: في بغداد نفسها (من التتار)، وفي فلسطين (الصليبيين) وفي الأندلس (الصليبيين أيضاً) ثم في كل المنطقة (من العثمانيين في لحظات معينة ومناطق معينة) ثم من الأوربيين المحدثين في القرنين التاسع عشر والعشرين.

وبعبارة أخرى لقد انكسر مسار الحركة السياسية العربية (والتي لم تأخذ شكل الكيان السياسي العربي المتميز أو الدولة على كل حال كما أشرنا مراراً) وانكسر معها مسار الحضارة العربية الإسلامية وذلك منذ منتصف القرن الثالث عشر تقريباً.

وهذه هي مرحلة الانقطاع الحضاري. وبعبارة أخرى لم يقدر لمفعول الحضارة أن يستمر لصهر مكونات الأمة في البوتقة الحضارية، وليس هذا فقط، بل لقد عملت القوى المعادية للعرب على تشويه وتخريب معالم الحضارة العربية الإسلامية.

وكان هذان العاملان: الداخلي والخارجي، وراء الركود العربي الحضاري النسبي والذي استمر لمدة سبعة قرون حتى الآن.

أما في أوروبا الحديثة فقد تحققت الاستمرارية الحضارية من خلال حركة القوميات، وحتى في ألمانيا كانت بروسيا في القرن التاسع عشر هي مركز تبلور كل من الشق الثقافي للحضارة (اللغة والأدب) والشق المادي (حركة التوحيد الجرمي أو الزولفرين).

ولعبت عدة مناطق إيطالية دور بلورة المساهمة الإيطالية الكبرى بدء من عصر النهضة انطلاقاً من دانتي وجاليليو، ومايكل أنجلو، وليو نارودو دافنشي.

وفي الحالة العربية في العصر الحديث وجدت محاولتان لبناء حضارة عربية، أي لتحقيق استمرارية الحضارة، أو لوصل ما انقطع وهي:

١ - جامعة الدول العربية ووكالاتها المتخصصة، وتجربة العمل العربي المشترك.

٢ - الناصرية وحركة العمل العربي الثوري العام.

انهما تمثلان مشروعين بديلين لحركة سياسية عربية تطمح إلى أداء دور الحركة السياسية العربية الأولى في المضمار الحضاري.

والمهم إذن أن التجربة العربية في القومية إذن تضع الحضارة باعتبارها المفهوم الأساسي لبناء وبلورة الأمة، بدلاً من مقولات الماركسيين حول الاقتصاد المشترك والدولة الموحدة. وقد أقامت الحضارة العربية الإسلامية الأولى مشروع أمة وظلت الحال كذلك حتى في عهد الانقطاع الحضاري الذي استمر سبعة قرون. وعندما انطلقت شرارة النهضة العربية الحديثة، نشأت القومية العربية كأيدولوجية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين - ولكنها رغم إنجازات:

أ - الحركة السياسية القومية الحزبية في المشرق العربي.

ب - جامعة الدول العربية.

ج - الناصرية.

لم تؤد إلى بلورة حركة سياسية عربية عامة تحقق وظيفة الاستمرارية الحضارية ومن ثم تكمل تكوين الأمة عبر رفع رابطة الولاء القومي والانتماء القومي فوق الولاءات والانتماءات الجزئية الصغرى "دون القومية".

الخلاصة من الأمر إذن أن عهود أو مراحل التكوين العربي من وجهة النظر التحليلية هنا تتمثل في الآتي:

١ - عهد الحركة السياسية العربية الأولى أو المبكرة، حيث الحضارة العربية الإسلامية، أوجدت مشروع الأمة، أي "القومية العربية الاجتماعية" إن صح التعبير، أي Social Nationality (في النصف الأول من العصور الوسطى).

- ٢ - عهد الانقطاع السياسى العربى والانقطاع الحضارى العربى مع تشويه وتخريب النمط الحضارى العربى الإسلامى وخاصة على يد الاستعمار الأوروبى الحديث.
- ٣ - عهد نشوء "القومية العربية المذهبية" Arab Nationalism على المستويين الإدراكي والحركى.

ومنوط بالقومية العربية المذهبية، عبر الإدراك والحركة السياسية العربية أى الحركة القومية، تعميق بناءو تكوين الأمة عبر استئناف التطور الحضارى. ويتحقق تمام تكوين الأمة بتغليب الولاء والانتماء القومى على الولاءات والانتماءات دون القومية.

المبحث الثالث

بعض الظواهر الكامنة وراء اغتراب إيديولوجية (القومية العربية)

- أولاً: فيما يتعلق بالمغرب العربى:
- تكمّن بالمغرب العربى ظاهرة يمكن أن نسميها "اغتراب المغرب العربى"، عن فكرة وحركة القومية العربية. وهذه الظاهرة تقف وراءها عدة مجموعات من العوامل:
- ١ - المجموعة الأولى: تتعلق بظروف تكوين "الشخصية الحضارية للمغرب العربى": حيث أصبح الإسلام عماد الوجود الحضارى للمغرب نفسه، أو عماد "ذاته" التاريخية، فالمغرب الإسلامى يعرف نفسه بنفسه من خلال الإسلام كديانة ولكن خاصة: كحضارة.
 - ٢ - المجموعة الثانية: تتعلق بالانقسام الاجتماعى - الثقافى للبشر فى المغرب العربى إلى ثلاثة عناصر: العرب، والأمازيغ، والإفريقيون.
- وقد أدى الكفاح من أجل لحم تماسك هذه العناصر فى إطار الحركة الوطنية الحديثة والمعاصرة إلى تأكيد القاسم المشترك وهو الانتماء الإسلامى، بدلاً من العلامة الفارقة وهى: الانتماء إلى "أصل" عربى، أخذ على أنه مرادف للعروبة سياسياً، أو هكذا بدا الأمر.
- ٣ - المجموعة الثالثة: تتعلق بظروف نشأة وتكون الفكرة القومية والحركة القومية العربية، والتي ظهر منها وكأن العروبة ذات منحى يتعلق "بالأصل" العربى مطبقاً على المشرق بالدرجة الأولى، وإن كان مركزه التاريخى فى شبه الجزيرة العربية، وخاصة فى الحجاز واليمن الحاليين.
- وهذه المجموعات الثلاثة من العوامل مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً: فالتكوين الحضارى والثقافى للمغرب من خلال الإسلام لم تتبعه "مغربة" العرب المهاجرين بصفة كاملة ولم يحدث "التعريب البشرى" الكامل للمغرب وكلاهما وجهان لحقيقة واحدة ...
- وقد أدى الحرص على تماسك لحمة العناصر التى لم تلتحم إلا فى الحضارة الإسلامية إلى إبراز الانتماء الإسلامى بدلاً من الانتماء العربى، وتؤكد ذلك من خلال الظروف الخاصة لنشأة وتكوين الفكرة والحركة القومية العربية.
- ٤ - المجموعة الرابعة: التكوين الذاتى لقسم من النخبة السياسية والفكرية فى البلاد المغاربية ... ونقصد النمط السائد للثقافة السياسية فى هذه البلاد (باستثناء ليبيا) فى ظل الاستعمار الفرنسى.
- فمن المعلوم أن الاستعمار الفرنسى قد اتبع سياسية مميزة إزاء النخب السياسية والفكرية فى المستعمرات فى إفريقيا وشرق آسيا، هى سياسة الاستيعاب أو الإدماج Assimilation، ونقصد القيام بعملية "تحويل ذاتى" للقيادات الفكرية والسياسية بغية الحيلولة بينها وبين المشاركة فى عملية محتملة للإيناع الحضارى القومى أو الوطنى.

وقد اصطلح مؤخراً - وخاصة في الجزائر - على اطلاق مصطلح النخب (الفرانكوفونية) على هذه الظاهرة، حيث يمكن أن يعتبر اعتناق الثقافة الفرنسية وممارسة التعلم والتثقيف باللسان الفرنسي مدخلاً محتملاً لاكتساب قيم سياسية غربية معينة على النسق الفرنسي، في المجال الحضارى في عدد ملحوظ من الحالات. ويقود ذلك إلى تحيزات اجتماعية وأيديولوجية ذات أثر عظيم الخطر، وخاصة فيما يتعلق بالموقف القيمي إزاء الدين والقومية، ومن هنا تنتشر النزعات العلمانية من جهة أولى، والنزعات الكوزموبوليتانية (العالمية الانسانية بدون إقامة اعتبار للعامل القومى) من جهة أخرى. وذلك فى إطار نزعة رئيسية هى الارتباط بالحضارة الغربية تحت شعار أن الحضارة لا تتجزأ.

وقد يؤدى ذلك لدى البعض إلى نوع من احتقار وكراهية "الذات" والى التمييز على النزعات السابقة من خلال:

- ١ - اعتناق أيديولوجيات (نقدية) معينة.
- ٢ - بعث الفولكلور المحلى: القبلى والمناطقى ... كأداة لمغالبة الشعور الوطنى والهوية، وإيجاد بديل من الجذور الشعبية التى تصطنع اصطناعاً لخدمة الأغراض الأيديولوجية والسياسية "المستوعبة".

وأشد ما يبعث على الكراهية - لدى بعض أفراد هذه النخب - هو تبنى قيم أو ممارسات ذات طبيعة دينية أو عروبية أو حتى عربية فقط (التعريب فى الجزائر مثلاً). ومن هنا معارضتهم للحركة السياسية الإسلامية وحركة القومية العربية - فى آن معاً. وتشاء الأقدار التاريخية أن تجعل الإسلام والعروبة فى المغرب العربى صنوين لدى القسم الأكبر من النخب الوطنية التقدمية فى تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا. ولذلك تجد أقسام من النخبة (الفرانكوفونية) نفسها فى مواجهة مباشرة مع الحركات الوطنية ذات الاتجاه الإسلامى والمنحى القومى العربى. ويعتبر هذا العامل كما أشرنا أحد العوامل المفسر للظاهرة محل البحث ... ظاهرة (اغتراب) القومية العربية فى المغرب العربى.

ثانياً: التوجه المشرقى للفكر القومى والسياسة العربية:

- ١ - التوجه المشرقى للفكر العربى المعاصر:
- يمكن القول - بقدر من التعميم - إن الفكر القومى كما تمثل أساساً فى أعمال "ساطع الحصرى" وحزب البعث، وعبد الله الريماوى وعصمت سيف الدولة، بصفة عامة هو فكر موجه نحو المشرق. ومن الأدلة الهامة على ذلك استبعاد أثر الهجرة البشرية فى تكوين الأمم عموماً، والأمة العربية خصوصاً. فالمغرب العربى فى الحقيقة تم (تعريبه) لغوياً وثقافياً بواسطة هجرة بشرية استثنائية فى التاريخ، مما يجعل للعامل البشرى بعداً دينامياً خاصاً ومعقداً. ومن الأدلة أيضاً: المبالغة فى تحديد دور التجزئة كأساس لقيام الدول الإقليمية العربية. إذ الحقيقة أن هناك دولاً نشأت بالتوحيد (مثل السعودية وليبيا) ودولاً قامت على أساس تاريخى سابق (مصر واليمن).

ومما يزيد الأمر تعقيداً أن المفكرين "غير القوميين" (بالمعنى المحدد) وخاصة منهم (الأكاديميين) مثل جورج أنطونىوس (فى: يقظة العرب) وألبرت حورانى (فى: "تاريخ الشعوب العربية") قد بحثوا فى تاريخ القومية العربية بما يدعم التحيز المشرقى، وأضفوا نوعاً من صفة القداسة على أعمال أدباء مثل إبراهيم اليازجى وعبد السلام المويلحى وجورجى زيدان، وعبد الرحمن الكواكبي، ورشيد رضا، ونشاطات جمعيات مشرقية مثل الجمعية القحطانية و(العربية الفتاة) والمؤتمر العربى الأول بباريس ١٩١٣، وأعمال مفكرين مثل

ساطع الحصرى، وسياسيين مثل ميشيل عفلق، والذين نظر إليهم جميعاً باعتبارهم (الآباء المؤسسين) للقومية العربية، كأيدولوجية مكتملة ومكتفية بذاتها، وكحركة سياسية، وما على (الآخرين) فى (شمال إفريقيا) سوى الدخول فى هذه الكوكبة المقدسة.

٢ - التوجه المشرقى للسياسة العربية المعاصرة:

ويمكن القول هنا بصفة عامة أيضاً إن الاهتمامات السياسية الكبرى، والانشغالات الرئيسية للفكر القومى والحركة القومية مستمدة أساساً من التجربة السياسية الحديثة والمعاصرة للمشرق العربى.

ولذلك نجد أنه باستثناء الاهتمام المكثف بالثورة الجزائرية فى فترة ١٩٥٤ - ١٩٦٢ لم يجر إدماج الشواغل السياسية لمصر والمغرب فى إطار الفكر القومى وجدول أعمال الحركة القومية، ومن هنا نجد أن أهم القضايا التى حظيت بالاهتمام المكثف لأولئك القوميين بشكل تقليدى هى:

- قضية فلسطين (وهى قضية تستحق هذا الاهتمام بكل تأكيد - وأكثر...).

- قضية وحدة مصر وسوريا.

إن هذا الاستبعاد المصمم والمنظم (المنهجي) - إلى حد ما - للمغرب العربى من حلبة السياسة (القومية) ومن حلبة الفكر (القومى)، قد ضاعف من أثر العوامل الأخرى بحيث نجمت الظاهرة التى نبحثها وهى استبعاد المغرب، وإن شئت فقل "اغتراب المغرب" عن القومية العربية باعتبارها هنا ظاهرة سياسية (العروبة السياسية).

٣ - التوجه المشرقى وكتابة التاريخ:

وأما عن التاريخ، فقد صور فى الفكر القومى السائد (ذى الطابع "المشرقى") على أنه تاريخ "العنصر العربى" بكل تأكيد، فالأمة العربية تنحدر مباشرة من الأسلاف، من العرب العاربة (فى اليمن) والعرب المستعربة (فى نجد والحجاز) وامتداداتهم فى قبائل الغساسنة على حدود الشام وقبائل المناذرة على حدود العراق.

هذا فى الجاهلية. وبعد الجاهلية العربية كمرحلة تأسيسية للأمة العربية - فى نظر الفكر القومى (المشرقى) السائد - يأتى العصر الأموى والدولة الأموية، وهى دولة تدعو للفخر الشديد من وجهة نظر هذا الفكر أيضاً لأنها جسدت حكم العرب الخُص. (بينما يتم حذف الحكم الأموى فى الأندلس لأنه لم يكن حكماً عربياً بالمعنى (الصافى) السائد فى الشام).

وتمت إدانة نزعة الأمم والشعوب الأخرى فى عهود الدول الإسلامية المتتابعة للمشاركة فى سلطة الدولة باعتبارها من قبيل إثارة الفرقة والانقسام، وتم إطلاق تسمية (الشعبوية) عليها كظاهرة امتدت إلى العصر العباسى.

وانطلاقاً من ذلك يمكن لنا أن نستطرد فنقول - حسب الاتجاه القومى الكلاسيكى "المشرقى" - إن تاريخ مصر القديمة، والعراق القديم، والمغرب القديم خاصة فى عهد قرطاج... إن كل ذلك لا يعتبر من قبيل العملية التأسيسية للأمة العربية التى تكونت موضوعياً من خلال اجتماع عدة أقوام... اللهم إلا من زاوية واحدة فقط هى الأثر الحاسم للعنصر السامى عموماً، و(الجنس العربى)- إن وجد، على ثقافة هذه المناطق جميعاً: فالفينيقيون كنعانيون والبربر من أصل (عربى) أو (سامى) بل المصريون القدماء أتوا من هجرات من شبه الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر وسيناء وكذلك لغتهم وأديبهم امتداد لتراث اللغة أو اللغات السامية، وإن شئت فقل: اللغة العربية.

ويصل الفهم (المثالى) لتكوين الأمة العربية - لدى الفكر القومى "المشرقى" - إلى أقصاه، حين تصبح هذه الأمة (كلاً مطلقاً) (أزلياً وأبدياً)، تكويناً سرمدياً يعنى، واحدى الأصل والمأل، يبدأ إذن وينتهى بالأصل العربى المقدس، من قداسة الدين الإسلامى نفسه. وفى تقييمنا لهذا

التوجه "المثالي" فى الفكر القومى السائد يمكن القول أن الأمة العربية حقاً هى أعرق بكثير من كثير من الأمم باتخاذ معيار المفاضلة أهم العوامل المشتركة فى جميع الأمم والقوميات وهى: اللغة والتاريخ. سواء كانت أمماً ضعيفة أو قوية ... قوميات متبلورة أو هشة. فحتى فى تلك الأمم الضعيفة أو غير المكتملة، تسود اللغة الواحدة والتاريخ المشترك باعتبارهما أهم سمات "القوم المركب" أو القومية "كظاهرة اجتماعية".

أما فى القومية "كأيديولوجيا" فإن اللغة تأخذ شكل ظاهرة الإحياء الثقافى ويأخذ التاريخ شكل "الإحياء التاريخى" أى صنع ذاكرة تاريخية، أى شعور تاريخى واع يشكل أهم دوافع انتشار الأيديولوجيا القومية والحركة القومية بين أعضاء الجماعة البشرية المعنية. فلنميز إذن - كما أشرنا آنفاً - بين التاريخ كحركة وقائع موضوعية، وهو يعتبر من أهم مكونات الأمة، وبين التاريخ كذاكرة جماعية، وهو يعتبر من مقومات القومية، كفكرة (وأيديولوجيا) وكحركة (وهو أقرب إلى "التأريخ" كما ذكرنا).

وبرغم أن الفكر القومى (السائد) قد اقترب من الحقيقة التاريخية إلا أنه قد أخفق فى إدراك بعض عمليات التاريخ الموضوعى - بتجاهل البعد الإسلامى فى التكوين الحضارى العربى الإسلامى - وكذا فى إدراك ضرورات "التاريخ الذاتى" - أو "التأريخ" - باستبعاد "الجناح المغربى"، أساساً من حقل الوعى التاريخى.

والخلاص مما سبق - فى الفكر العربى المعاصر والسياسة العربية المعاصرة وكتابة التاريخ- أن القومية العربية بدت وكأنها ظاهرة مشرقية، صنعت خصيصاً فى المشرق؛ وبالتالي حدث ذلك التفارق الكلاسيكى على الصعيد السياسى بين المغاربة والقومية العربية: الأيديولوجيا والحركة.

ما الحل؟

بما أن (القومية العربية هى الحل...!) فإنه يجب علينا البحث فى طريقة دمج المشرق والمغرب فى كتلة الفكرة والحركة القومية العربية. ولن يكون ذلك إلا من المدخل التالى: إعادة بناء (أو إعادة هيكلة...!) الفكر القومى العربى والحركة القومية العربية. ولكن هذه قضية أخرى. والله المستعان.